الضمير الأخلاقي في الفكر الإلحادي

وموقف الإسلام منه

دراسة تحليلية نقدية مقارنة

إعداد الدكتورة

فاطمة نبيل شعبان مراد

مدرس بكلية الدراسات الإسلامية والعربية – بنات

قسم العقيدة والفلسفة

القاهرة ـ جامعة الأزهر

الضمير الأخلاقي في الفكر الإلحادي وموقف الإسلام منه: دراسة تحليلية نقدية مقارنة

فاطمة نبيل شعبان مراد حسين

قسم العقيدة والفلسفة – كلية الدراسات الإسلامية والعربية – جامعة الأزهر – القاهرة – مصر

الايميل: fatmamourad.el20@azhar.edu.eg

ملخص البحث:

إن الأخلاق روح الحضارات والعماد الذي يصون المجتمعات، ويحفظ لها توازنها وبقائها، وقد اهتم الإسلام بالأخلاق اهتماما بالغًا لا يوجد له مثيل؛ فالأخلاق في الإسلام بمنزلة الروح من الجسد، واهتم كذلك بكل العوامل والأسباب التي تساعد علي قيامها وتهذيبها. ومن أبرز تلك العوامل ما يسمي حديثًا "بالضمير الأخلاقي" .

ولقد جاء هذا البحث لبيان مكانة الضمير الأخلاقي في الفكرين الإسلامي والإلحادي، وبالتالي مكانة الأخلاق في كلا الفكرين والمقارنة بينهما؛ لذا كان المنهج التكاملي هو المُتبع في هذا البحث.

لقد ذكر القرآن الكريم وكذلك أشارت السنة النبوية المطهرة إلي ذاك الحس الأخلاقي، وأيضًا علماء الإسلام ومفكروه قد اهتموا بتلك الهبة الربانية، وذاك الاستعداد الذي وهبه الله – تعالي– لعباده يلتمسون به البِر والخير، ويستنيرون بحكمه فيما يعرض لهم من مواقف. فأطلق عليه البعض "العقل العملي" لصلته بالعمل، وأطلق بعضهم عليه "الحكمة الخلقية" مجازًا لدورها في إرشاد وتوجيه الإنسان للحق والصواب.

وفى الفكر الإلحادي جاء منحصرًا تحت مسميات لا ترقى للدور المنوط به الضمير في مجال الأخلاق؛ فهو إما خاصية نفسية موروثة عن طريق الجينات أو القائمين علي التربية ولا سبيل إلي تغييرها أو تهذيبها، أو استعداد مكتسب من المجتمع يفرضه العقل الجمعي علي الإنسان ولا يملك حياله إلا الطاعة العمياء؛ لذا فالضمير الأخلاقي في ضوء الفكر الإلحادي المادي يؤدي إلي ذاتية الأخلاق ونسبيتها؛ وبالتالي انهيار الأمم والمجتمعات؛ لغياب القيم والمبادئ الأخلاقية المطلقة، أما المنهج الإسلامي فقد اهتم برعاية تلك الهبة الربانية؛ والمنحة الإلهية التي يولد بها الإنسان فأوصي برعايتها وتزكيتها؛ حتي تكون عاملًا بنّاء وفعّال في قيام أخلاق موضوعية مطلقة؛ لذا فالضمير الأخلاقي في ضوء المنهج والفكر الإسلامي يُعد عاملًا بنّاء وفعّال في قيام أخلاق موضوعية مطلقة؛ وآلية مهمة وفعالة في بناء الوعي الإنساني الرشيد.

الكلمات المفتاحية: الضمير، الأخلاق، الضمير الأخلاقي، الفكر الإسلامي، الفكر الإلحادي، الإلحاد.

The Moral Conscience in Atheistic Thought and Islam's Position on It: A Comparative Analytical Critical Study

Fatma Nabil Shaaban Mourad Hussein.

Department of Creed and Philosophy, Faculty of Islamic and Arabic Studies, Al-Azhar University, Cairo, Egypt

Email: fatmamourad.el20@azhar.edu.eg

Abstract:

Islam emphasizes all the factors and reasons that help establish and refine ethics. Among the most prominent of these factors is what has recently been termed the “moral conscience.” This research aims to clarify the position of the moral conscience in both Islamic and atheistic thought and to compare them. Therefore, the integrative approach has been followed in this research. The Holy Quran and the purified Sunnah have indicated this moral sense. Also, Islamic scholars and thinkers have paid attention to this divine gift, through which they seek righteousness. In atheistic thought, this moral sense is confined to terms that cannot match the role assigned to the conscience in the field of ethics; it is either an inherited psychological trait through genes or the influence of educators that cannot be changed or refined, or readiness acquired from society and imposed by the collective mind on the individual, who has no choice but to blindly obey. Therefore, the moral conscience in materialistic atheistic thought leads to subjective and relative ethics, resulting in the collapse of nations and societies due to the absence of absolute ethical values and principles. On the other hand, the Islamic approach has taken care to nurture this divine gift;

therefore, the moral conscience in light of the Islamic approach and thought is considered a constructive and effective factor in establishing objective absolute ethics, and an important and effective mechanism in building wise human consciousness.

Keywords: conscience – ethics - moral conscience - Islamic thought - atheistic thought - atheism

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي أشرف المرسلين محمد –صلي الله عليه وسلم– وعلي آله وصحبه ومن تبع هداه إلي يوم الدين، وبعد:–

كثيرًا ما يشعر المرء بصوت داخلي يوبخه عند مخالفة القوانين الأخلاقية، أو خرق الواجب الأخلاقي أو إتيان أي فعل غير أخلاقي، أو تصرف مشين، وفي المقابل يشعره بالسعادة والارتياح الداخلي عند اتباع القوانين الأخلاقية، والالتزام بما يقتضيه الواجب الأخلاقي، وعمل الخير. ليس هذا فحسب، بل إن ذاك الصوت الداخلي يمنح المرء القدرة على التفرقة بين الخير والشر، وتمييز الحسن من القبيح، ويشجع على فعل الخير ويثبط العزيمة عن فعل الشر، يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، تلك القوة الآمرة بالخير والناهية عن الشر، ذلك الشعور أو الصوت المُأنب والمشجع هو ما اسماه فلاسفة الأخلاق حديثًا بـــــ "الضمير الأخلاقي". وعُرِفَ قديمًا في الفكر الإسلامي: بأنه قوة من قوى النفس أطلق عليها البعض "العقل العملي"، والبعض الآخر "الحكمة الأخلاقية". ويُطلق عليها فى الفكر الإلحادي "الحاسة الخلقية" عند البعض، و"العاطفة" أو "الوجدان" عند البعض الآخر.

فما هى تلك القوة المُضمرة والخفية فى النفس الإنسانية؟ ما هو الضمير؟ وما هو دوره في بناء الأخلاق وتكوين الوعي الإنساني الرشيد؟ وهل هو فطري أم مكتسب؟ الإجابة عن هذه الأسئلة هي موضوع هذا البحث.

أسباب اختيار البحث:

- عملا بقوله – تعالي – "ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ" فهذه مناقشة لنقطة تعد هي الأخطر في الفكر الإلحادي؛ حيث تستهدف هدم الأخلاق؛ ولأن الأخلاق تُعد عماد المجتمعات وسبيل نجاتها كانت الضرورة مُلحة لمثل هذا البحث.

- تزايد الخطاب الإلحادى، خاصة في وسائل التواصل التى لا يخلو منها بيت.
- تدني المستوى الأخلاقى لمجتمعاتنا العربية والإسلامية، فى الآونة الأخيرة.

منهج البحث:

يعتمد هذا البحث على المنهج التكاملى؛ إذ يستعمل المنهج الوصفي، والمنهج التاريخي، على سبيل الاستعانة ثم المنهج التحليلي والنقدي.

وقد راعيت في هذا البحث ما يلي:

- توثيق الآراء من مصادرها الخاصة بها.
- عزو الآيات القرآنية بذكر اسم السورة ورقم الأية.
- تخريج الأحاديث من مصادرها المعتمدة.
- الترجمة لأبرز الأعلام والمذاهب الوارد ذكرها في البحث.

خطة البحث:

ينقسم البحث إلي مقدمة، وثلاثة مباحث، وخاتمة:

تشمل المقدمة أسباب اختيار موضوع البحث، ثم المنهج المتبع. وفي المبحث الاول: جاء تعريف الضمير الأخلاقي، وفي المبحث الثاني: الضمير الأخلاقي في الفكر الإلحادي، وفي المبحث الثالث: الضمير الأخلاقي في الفكر الإسلامي، وتعقيب فيه مقارنة الضمير الأخلاقي بين الفكر الإلحادي والفكر الإسلامي، ثم الخاتمة: والتي اشتملت علي أهم نتائج البحث.

المبحث الاول

معنى الضمير الأخلاقي

للوقوف علي معنى الضمير الأخلاقي والمقصود به لابد من تتبع معنى "الضمير" في معاجم اللغة العربية، قديما وحديثًا، وبيان الفرق بين المعنيين، ومن ثم استنباط المصطلح المركب "الضمير الأخلاقي"

المطلب الاول: تعريف اللغوى للضمير:

جاءت كلمة " الضمير" في معاجم اللغة العربية قديمًا بعدة معان تدل في مجملها على الخفاء، والسر، والستر.

"قال الليث: الضمير هو الشيء الذي تضمره في ضمير قلبك، تقول أضمرت صرف الحرف إذا كان متحركًا فأسكنته"(١). وجاء أيضًا "الضمير: ضمير الإنسان: سره الذي يضمره ويخفيه"(٢). وجاء أيضًا " ضمير: سريرة، طوية."(٣). الضمير في علم النحو: سكون الحرف بعد حركته، وضميره الإنسان ما أخفاه، ويطلق على السريرة، والطوية أي ما انطوت عليه النفس ولم تظهره.

---

(١) الهروي، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت ٣٧٠هـ)، تهذيب اللغة، تحقيق: محمد عوض مرعب، بيروت – دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى (٢٠٠١م)، ج٢، ص ٢٨.

(٢) نشوان بن سعيد الحميري اليمني (ت ٥٧٣هـ)، شمس العلوم ودواء كلام العرب من المكلوم، تحقيق: د حسين بن عبد الله العمري – مطهر بن علي الإرياني – د يوسف محمد عبد الله، بيروت – دار الفكر المعاصر، دمشق – دار الفكر، الطبعة الأولى، (١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م)، ج٦، ص ٩٥.

(٣) رينهارت بيتر آن دُوزِي (ت ١٣٠٠هـ)، تكملة المعاجم العربية، نقله إلى العربية وعلق عليه: جـ ١ – ٨: محمَّد سَليم النعَيمي، جـ ٩، ١٠: جمال الخياط، الجمهورية العراقية – وزارة الثقافة والإعلام، الطبعة الأولى(١٩٨٠م)، ج٦، ص٥١٩.

وورد أيضًا في معني الضمير أنه "المستور فعيل بمعني (مفعول) أطلق على العقل لكونه مستورًا عن الحواس"(١). وجاء كذلك "الضمير السر، وداخل الخاطر"(٢).

مما سبق يتضح أن الضمير لم يأت في معاجم اللغة **قديمًا** إلا بمعني "الستر" و"الخفاء" و"داخل الخاطر" و"السر"، وكلها معاني تدل على أن الضمير هو الشيء المستور المخفي عن الأنظار فهو كل ما استتر في النفس، وخفى عن الآخرين؛ ومنه جاء الضمير في النحو، **وحديثًا** اتخذت المعاجم العربية اتجاه آخر في تعريف الضمير؛ حيث أضفت عليه صبغة أخلاقية.

فجاء في المعجم الوسيط أنه " استعداد نفسي لإدراك الخبيث والطيب من الأعمال والأقوال والأفكار والتفرقة بينهما، واستحسان الحسن، واستقباح القبيح منها"(٣). فهو ملكة في النفس الإنسانية بها يميز الإنسان بين الخبيث والطيب ويفرق بين الخير والشر، تُرغِّب في الحسن وتُنفِّر عن القبيح، وهذا هو الضمير بالمعنى الأخلاقي، وهو المقصود بالبحث والدراسة هنا.

المطلب الثاني: الضمير الأخلاقي:

يُعرف الضمير الأخلاقي بأنه هو " إحساس المرء بالصواب والخطأ، وهو أمر مرغوب فيه من قبل الفلاسفة بوصفه انعكاسًا لصوت الله، ملكة إنسانية، وصوت العقل، أو بوصفه معني أخلاقيًا خاصًا"(٤). فهو ملكة وإحساس داخلي

---

(١) أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (ت ١٠٩٤هـ)، الكليات، تحقيق: عدنان درويش – محمد المصري، بيروت – مؤسسة الرسالة، ص٥٧١.

(٢) الفيروزآبادى، القاموس المحيط، ص ٤٢٩.

(٣) مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، **المعجم الوسيط**، القاهرة – دار الدعوة، (١٤٣١هـ) ص٥٤٤.

(٤) تدهوندرتش، دليل أكسفورد للفلسفة، ترجمة: نجيب الحصادى، الجمهورية العربية الليبية– المكتب الوطني للبحث والتطوير، الجزء الأول (من حرف أ إلى حرف ط)، ص ٥٤٦.

نحو الأشياء من حيث الحكم عليها بالصواب أو الخطأ، وبيان ما ينبغي وما لا ينبغي.

وورد أيضًا أنه "استعداد نفسي لإدراك الحسن والقبيح من الأفعال، مصحوب بالقدرة على إصدار أحكام أخلاقية مباشرة على قيمة بعض الأفعال الفردية. ويطلق أيضًا على الملكة التي تحدد موقف المرء إزاء سلوكه، أو تتنبأ بما يترتب على هذا السلوك من نتائج أدبية واجتماعية. فإن تضمن حكمًا على أفعال المستقبل كان صوتًا داخليًا آمرًا أو ناهيًا "[1] يمكن وصفه أيضًا بأنه خاصية أو استعداد في النفس تُدرك به حُسن الحَسن، وقُبح القَبيح، إدراك مصحوب بإصدار حكم أخلاقي على بعض الأفعال، وهو أيضًا اسم لملكة إنسانية بها يحدد المرء موقفه تجاه سلوك معين، وما قد يترتب على ذلك السلوك من نتائج وتبعات.

وجاء أيضًا في معنى "الضمير الأخلاقي" أنه: " خاصة يصدر بها الإنسان أحكامًا مباشرة على القيم الأخلاقية لأعمال معينة، فإن تعلق بما وقع، صَاحبه ارتياح أو تأنيب، وإن تعلق بما سيقع كان آمرًا أو ناهيًا "[2] إن تعلق الضمير بفعل مضى وانتهى فإما أن يبعث في نفس صاحبه ارتياحا إن كان ما فعله خير أو صواب، وإما أن يبعث في نفس صاحبه قلقًا إن كان فعله شرًا أو خطأ. أما إذا تعلق بفعل سوف يحدث مستقبلًا فعندها تتغير سلطته إلى الأمر والنهي، فإما أن يأمر به إن كان خيرًا، أو ينهى عنه إن كان شرًا.

وعرفه "لالاند" بأنه: " خصوصية العقل البشري في إصدار أحكام معيارية قيمية، تلقائية فورية، على القيمة الأخلاقية لبعض الأعمال الفردية المحددة. عندما ينطبق هذا الضمير على أعمال الفاعل المقبلة، فإنه يرتدي رداء (صوت)

(١) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ص ٧٦٣، ج ١.

(٢) مجمع اللغة العربية، المعجم الفلسفي، لمجمع اللغة العربية، ص ١١٠.

يأمر أو يمنع، وعندما يقال على الأعمال السالفة، فأنه يترجم بمشاعر سرور (رضي) أو ألم (تأنيبيات)"[١].

المطلب الثالث: مهام الضمير الأخلاقي:

للضمير الأخلاقي دور مهم في المنظومة الأخلاقية، ومن تعدد أدواره ومهامه في مجال الأخلاق يمكن تقسيم أدواره كالآتي: دور معرفي، ودور إلزامي، ودور جزائي.

ومعني هذا أن الضمير سلطة تشريعية وسلطة تنفيذية وسلطة قضائية.

فالدور المعرفي: يتمثل في معرفة الخير وتمييزه عن الشر، والتفرقة بين الصواب والخطأ، والحق والباطل، وهذا الدور يكون قبل وقوع الفعل.

دور إلزامي: بعد التفرقة بين الخير والشر، يقود النفس ويُلزمها – إذا صلح – بعمل الخير والبعد عن الشر، فيأخذ في تلك المرحلة دور إلزامي، حيث الأمر، أو النهى.

دور جزائي: إذا إلتزم وأذعن له الإنسان فأتمر بأمره، وترك ما نهاه عنه، جازاه على ذلك بالسرور والفرح، وإذا عصاه وأهمل أوامره جازاه بالتأنيب والتوبيخ، ومشاعر السرور أو الـــتأنيب تكون بعد وقوع الفعل، كنوع من الجزاء.

---

(١) لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب: خليل أحمد خليل، تعهده وأشرف عليه: أحمد عويدات، بيروت– باريس: منشورات عويدات، الطبعة الثانية (٢٠٠١م)، المجلد الاول، ص٢١٢، ٢١٣.

المبحث الثاني

الضمير الأخلاقي في الفكر الإلحادي[١]

انقسم الملاحدة حيال الحكم على الضمير الأخلاقي هل هو كسبي أم غريزي إلى ثلاث فرق.

الفريق الأول: يري أن الضمير "غريزى" فهو غريزة يولد بها الإنسان، مثلها في ذلك مثل باقي الحواس الخمس الظاهرة..

الفريق الثاني: يري أن الضمير "كسبي" يكتسبه الإنسان بعد ولادته من خلال التجارب والخبرات الحياتية.

الفريق الثالث: أنكر وجود تلك القوة التي بها يميز الإنسان بين ما هو خير وما هو شر، والتي تؤنب الإنسان على فعل الشر وتشعره بالسعادة عند أداء الواجب أو الإلتزام بالخيرات عامة.

الفريق الأول: القائلون أن الضمير غريزي:

يري أصحاب هذا الاتجاه أن الضمير ما هو إلا "حشدًا من الغرائز وخليطًا من الانفعالات والعواطف، أو بعبارة أخري زمرة من الوجدانيات، وهذا الضمير يقيم في قلب الإنسان وليس في رأسه "[٢]. فالضمير عند هؤلاء مجموعة من الغرائز والانفعالات والعواطف التي تسبق أو تلي الفعل، وهو مجموع الوجدانيات التي يشعر بها المرء، والتي لا تخضع للعقل، بل مستقرها القلب.

يمثل هذا الرأي: الحدسيون من أصحاب مذهب الحاسة الخلقية، ومذهب التعاطف، أو ما يطلق عليه الاتجاه الوجداني في فلسفة الأخلاق من أمثال

---

(١) الفكر الإلحادي: هو تلك المذاهب والاتجاهات الفكرية المادية التي تنكر وجود الخالق عز وجل وما يترتب عليه من إنكار للديانات وما جاءت به من عقائد وشرائع وأخلاق.

(٢) توفيق الطويل، فلسفة الأخلاق نشأتها وتطورها، ص ١٦٠.

"شافتسبري"[١] و"هتشيسون"[٢] و"دافيد هيوم"[٣] فيذهب هؤلاء جميعًا إلى أن الضمير الأخلاقي حاسة يولد الإنسان مزودًا بها، وهى في عملها مثلها مثل باقي الحواس الظاهرة، والفرق بينهما أن الحواس الظاهرة –الخمس المعروفة– تُدرك المحسوسات، أما الضمير أو كما أطلقوا عليه "الحاسة الخلقية" فيُدرك

---

(١) **شفتسبرى، أنطوني أشلى كوبر،** " فيلسوف وأديب إنكليزي، ولد في لندن، وتوفى في نابولي، تتلمذ على يد جون لوك، ورغم معارضته له فكريا إلا أنه ظل يكن له حبًا صادقًا، سافر مرتين إلى هولندا، شارك في نشاطات الحلقات الأدبية والفلسفية في روتردام، من أهم كتبه في الأخلاق **فحص عن الفضيلة والفضل،** وله أيضًا **الأخلاقيون: الرابسودة الفلسفية،** وله أيضًا **رسالة حول الحماسة** " (انظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة، لبنان – بيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٦م، ص ٣٩٥).

(٢) **هاتشيسون، فرنسيس:** " فيلسوف وناقد إيرلندي، ولد في إيرلندا وتوفى في إسكتلندا، راودته فكرة الرهبنة الانفليكانية المنشقة لكنه عدل عن ذلك ليؤسس أكاديمية للتعليم الخاص في دبلن، وفيها نعم بحماية رجال الدين، بالرغم من خلافه مع الكنيسة القائمة. خلف معلمه السابق جرسوم كارميكائيل في كرسي الفلسفة الأخلاقية في جامعة غلاسكو، ومنذ ذلك توفرت له الظروف الملاءمة للانكباب على دراساته المفضلة. من أشهر مؤلفاته: **الفحص عن أصل أفكارنا في الجمال والطبيعة، محاولة في طبيعة الأهواء والانفعالات وتطورها،** تجدر الإشارة إلى أن نظرية هاتشيسون الجمالية تأثرت بآراء **شفتسبرى،** وأنها تندرج في إطار المأثور التجريبي لعصره. " (انظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة، لبنان – بيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٦م، ص ٦٨٧)

(٣) **هيوم، ديفيد،** " فيلسوف ومؤرخ وعالم اقتصاد اسكتلندي، ولد في أدنبرة ومات بها ، دخل الجامعة في سن الثانية عشر وتركها في سن الخامسة عشر ،أرادت أسرته له دراسة القانون إلا أنه عدل عنها لدراسة الفلسفة، وقع فريسة لانهيار عصبي لم يفق منه إلا بعد عدة سنوات، التحق بعدها للتجارة إلا أنه سرعان ما تركها وعاد لدراسة الفلسفة، كتب **رسالة في الطبيعة البشرية** في سن مبكرة ما بين عاميه الثالث والعشرين والسادس والعشرين، ولم يلق الكتاب ترحابا أو قبولا في مبدئه، تقدم بطلب لنيل كرسي الفلسفة الأخلاقية في جامعة إدنبرة إلا أنه قوبل بالرفض مرتين ؛ وذلك لموقفه من الدين والميتافيزيقا، من أشهر مؤلفاته **رسالة في الطبيعة البشرية، محاورات حول الدين الطبيعي، تاريخ انجلترا، الفحص عن الفهم البشرى.** " (انظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة، لبنان – بيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٦م، ص٧٢٦، ٧٢٧، ٧٢٨.)

الأمور المعنوية، فيدرك الخير والشر، والحُسن والقُبح، ويُفرق بينهما، ويحث على الخير، وينهى عن الشر إلا أنه يختلف عن الحوس الظاهرة بأنه ليس عضو حساس. هو إذن حاسة باطنة تتمثل محسوساتها في الأحكام الأخلاقية المختلفة، وهي تُدرك تلك الأحكام عن طريق "الحدس"[١] أي: بطريقة مباشرة، تلقائية دون حاجة إلى تعليم أو تربية، فتُدرك الأحكام الأخلاقية، تلقائيًا كما تُدرك العين الألوان، وكما تميّز الأذن الأصوات.

إن القول بأن الإنسان يدرك الأحكام الأخلاقية من الخير والشر، والصواب والخطأ تلقائيًا دون قصد أو إرادة منه، من شأنه أن يمحو دور المؤسسات التعليمية في تطوير وتعديل السلوك الإنساني، وكذلك يمحو دور الجهات المعنية في الإصلاح والتوجيه، ويبطل مفعول الخطب والمواعظ في الإصلاح والإرشاد، كما من شأنه أيضًا أن يقضى على معنى الأخلاق كلية، لافتقاد الأفعال فيها للقصد والإرادة.

الفريق الثاني: القائلون أن الضمير "مكتسب":

على عكس ما ذهب إليه الرأي السابق، يرى أصحاب هذا الرأي أن الإنسان يولد كالصفحة البيضاء، لا ميل فيها لخير أو شر، ولا تملك أي مبادئ معرفية أو أخلاقية، ولا تنزع نحو شيء بعينه أو تنفر من شئ بعينه، ثم مع توالى التجارب والخبرات تتشكل ميوله، وتتبين أخلاقه، فالضمير عند أصحاب هذا الفريق يكتسبه الإنسان في أثناء حياته، حيث يُعد نتيجة للخبرات والتجارب الحياتية، وتؤثر في تكوينه التربية، والأسرة، والمجتمع.

يتجلى هذا الاتجاه عند دعاة النفعية، وأصحاب مذهب التطور، والاجتماعيين من أصحاب المذهب الوضعي، وكذلك عند بعض علماء النفس من أنصار

---

(١) يعرف **الحدس** بأنه: "الإدراك المباشر لموضوع التفكير. وله أثره في العمليات الذهنية المشتركة، فيلحظ في الإدراك الحسي ويسمى **حدسًا حسيًا**، ويكون أساسًا للبرهنة والاستدلال ويسمى **حدسًا عقليًا**" (المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، ص ٦٩).

مذهب التحليل النفسي فهؤلاء من الملاحدة الذين تبنوا المنهج التجريبي، وطبقوه على كل العلوم الطبيعية منها، والإنسانية، حتى طبقوه على علم الأخلاق و" رفضوا رأى الحدسيين في اعتبار القوانين الأخلاقية أولية فطرية واضحة بذاتها أمام العقل، واستخفوا بالقيم الروحية العليا التي حرصت فلسفة الأخلاق التقليدية على الإعلاء من شأنها، وسخّروا الأخلاق لخدمة القيم والخيرات المادية من منافع ولذات وشهوة وطعام ومال ونحو ذلك؛ وتمثلت التجريبية الأخلاقية عند مذاهب في مقدمتها مذاهب اللذة والمنفعة، إذا أتفق أتباعها على التوحيد بين الضمير والاستبصار وأرادوا بالاستبصار: التقدير العقلي لنتائج الفعل وآثاره."(١) ورفض التجريبيون كون المبادئ الأخلاقية فطرية في النفس البشرية وأرجعوا نشأة "الضمير الأخلاقي" إلى التجربة وحدها، فأخضعوا القيم الأخلاقية لتتماشى مع ماديتهم وأهوائهم. وأضحى الضمير الأحلاقي في مذهبهم وليد استبصار، وتوقع نتائج الفعل وآثاره التي تترتب عليه، وبناءً على هذا التوقع وذاك الاستبصار فعل ما يتراءى أنه خير، مع الإشارة إلى أن الخير والمنفعة تتحدد في هذا المذهب حسب رؤية الشخص وخبرته، فما يكون خيرًا لأحدهم لا يعنى بالضرورة أنه خير للآخر، وما يكون شرًا لأحدهم قد يكون خيرًا لآخر. فالخير والشر مصطلحان تتحدد ماهيتهما حسب قناعات هذا الشخص وما يؤمن به. وهذا بدوره يُفضى إلى نسبية الأخلاق وذاتيتها.

فدعاة "المنفعة الفردية" وعلى رأسهم "جيرمي بنتام" رفضوا كون الضمير غريزة أو فطرة في النفس، وأرجعوا الاستهجان والاستحسان الذي يتولد في النفس عقب الفعل إلى ما يترتب عليه من نفع أو ضرر، فهو يجلب السعادة والاستحسان بقدر ما يتبعه من منفعة، ويجلب الاستهجان والسخط بقدر ما يتبعه

(١) المرجع السابق، ص ٣٥٦.

من ألم أو ضرر. فيذهب "بنتام(١٧٤٨-١٨٣٢ م)"[١] إلى أن " أصل الميل والنفور يجتمع غالبًا مع أصل المنفعة فإن الإنسان مفطور على الميل إلى ما ينفعه والنفور مما يضره لذلك ترى بعض الأعمال تُقبح أو تُحسن عند جميع الناس أنّى يوجدون"[٢] يرى أن الميل إلى شيء يكون نتيجة لكونه نافعًا، وكذلك النفور من شيء إنما لكون هذا الشيء ضارًا، ثم يعقّب على ذلك بأنه توجد بعض الأعمال تقبح أو تحسن عند الجميع، لكن كلامه هذا ليس صحيحًا فإذا كان الميل والنفور يتحددان حسب المنفعة كيف يكون هناك أشياء مجمع على حسنها أو قبحها؛ إن المنفعة لا يمكن أن تكون معيارا أو مقياسًا عاما لأنها تختلف من شخص لآخر، فما ينفع لشخص لا يحقق بالضرورة النفع للآخرين، وما يُسعد شخص قد لا يعنى شيئًا لآخر، فأشياء كالمنفعة أو اللذة ليست أشياء مطلقة يتفق عليه الجميع بل هي نسبية تتحدد وظروف كل شخص وقناعاته.

وعند أنصار مذهب "المنفعة العامة" تجد "جون ستيوارت مل"[٣](١٨٠٦-١٨٧٣م) يتحدث عن الضمير فيصفه بأنه "إحساس باطني" بالألم تتفاوت حدته

---

(١) **جيرمي بنتام:** " فيلسوف وفقيه قانوني إنجليزي، ولد في شباط (١٧٤٨م)، وتوفى عام (١٨٣٢م)، كان طفلًا خارق الذكاء، حتى قيل إنه تعلم اليونانية واللاتينية في الثالثة أو الرابعة من عمره، بالرغم من أن مهنته الأساسية المحاماة إلا أنه لم يهتم بها لما وجده من تناقض في القوانين، ولهذا أبدا اهتمامًا واضحًا بالكيمياء [والعلم التجريبي عامة]، وبدأ بإرساء أسس المذهب الفلسفي الذي عُرِف بعد بضع سنين ب (النفعية)، من أشهر كتبه (دفاع عن الربا ١٧٨٧ – وكتاب مدخل إلى مبادئ الأخلاق والتشريع)." (انظر: جورج طرابيشي، معجم، دار الطليعة، لبنان –بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦م. ص ١٩٠).

(٢) بنتام، جيرمي، أصول الشرائع، ترجمة: أحمد أفندي فتحي زغلول، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (٢٠١١م)، ص٢٣.

(٣) **جون ستيوارت مل (١٨٠٦- ١٨٧٣م):** فيلسوف وعالم اقتصاد إنكليزي، ولد في لندن، أشرف والده "جيمس مل " على تربيته، وقد دلل على تفوق في دراسته وعلى قدرة فائقة على الاستيعاب، عندما أنتجت تأثيرات الحركة الثورية الفرنسية لعام ١٨٣٠م تيارًا سياسيًا ليبرالي النزعة في بريطانيا، ساهم "مل" مساهمة فعالة في المساجلة التي سبقت قانون الاصلاح؛ كما ظل، على مدى بضعة أعوام، يكتب في صحف تتسم بطابع= –

تبعًا لدرجة البعد عن الواجب، وهذا الإحساس لا يتوفر لأي شخص، بل لأولئك الذين تلقوا تربية أخلاقية ملائمة. ثم وصف هذا الإحساس بأنه في مقدوره أن يجعل مخالفة الواجب من باب الأمر المستحيل وهذا الإحساس أسماه " جوهر الضمير" ثم تحدث عن نشأته فوصفه بأنه ظاهرة ورأى أنها متشعبة في الواقع البسيط قائلًا: " أنها تنبع من كل أشكال الاحساس الديني ومن ذكريات الطفولة، ومن كل ما عشناه في الماضي، ومن خلال تقديرنا لذواتنا، ومن رغباتنا في تقدير الآخرين لنا وبصفة ظرفية حتى من التواضع "[١] . فأرجع " مل " نشأة الضمير الأخلاقي إلى تجارب الفرد وذكرياته في الطفولة، وما يتلقاه من تربية دينية، فهي التي تُشكّل ضميره، وتحدد ميوله فتجعله وبناءً عليها يستقبح أمورًا ويستحسن أخرى، وإلى ذكريات الماضي والطفولة التي اعتاد فيها على استحسان أشياء واستقباح أخرى.

أما بعض علماء الاجتماع من الوضعيين وعلى رأسهم "دوركايم ١٨٥٨-١٩٧١م"[٢] ذهبوا إلى أن الضمير الأخلاقي يتشكل بواسطة ضغط المجتمع

=ليبرالي جذري. جدد المذهب التجريبي على أساس السيكولوجيا التداعيّة المقتبسة عن "هيوم"، وفى الأخلاق، عدلّ نفعية "بنتام" ليكيفها مع القانون والسياسة، وقد اهتم علاوة على ذلك بتطبيق مبادئ فلسفته في أعمال شتى أخرى تشهد على سعة تفكيره وقوة ليبراليته. (انظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، بيروت – دار الطليعة، الطبعة الثالثة (٢٠٠٦م)، ص ٦٨٣، ٦٣٩.)

(١) جون ستيوارت مل، النفعية، ترجمة: سعاد شاهرلى حرار، مراجعة: هيثم غالب الناهي، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، الطبعة الأولى (٢٠١٢م)، ص ٦٨.

(٢) **إميل دوركايم** " فيلسوف اجتماعي ومن مؤسسي مدرسة علم الاجتماع الحديث ، ولد عام ١٨٥٨م، من أسرة يهودية ضمت الكثير من الأحبار الربانيين، وتوفى عام ١٩١٧م، في سنة ١٩٠٢م عين دور كايم في السوربون وبعد ذلك بأربع سنوات أصبح أستاذًا ذا كرسي ، وفى فترة أستاذيته واصل إصدار مجلته حولية علم الاجتماع ، وألقى محاضرات التي اتخذت بعد ذلك شكل كتب، كَتَب مقالات جمعها بعد ذلك تلميذه بوجليه تحت عنوان: علم اجتماع وفلسفة، تتلمذ على يديه الأديب المصري: طه حسين، وكان مشرفًا لرسالته التي=

وعاداته وتقاليده وأعرافه فإن المرء يستحسن ما يستحسنه المجتمع، ويستقبح ما يستقبحه المجتمع، فيتشرب من طفولته عادات وأعراف وقوانين مجتمعه، فتنشأ بداخله صورة لتلك الأعراف والعادات وينعكس "الضمير الجمعي" – أي الذي يعبر عن روح الجماعة– في نفسه وينشأ نتيجة لذلك تلك السلطة أو القوة الباطنة التي تأمره وتنهاه، وتستقبح امورًا وتستحسن أخرى وهذا – في رأيهم –هو ما يسمى بالضمير الأخلاقي والذي يُعد صورة أو انعكاس للضمير الجمعي للمجتمع الذي يعيش فيه. فالضمير – حسب هذا المذهب – مكتسب يكتسبه الإنسان من المجتمع الذي يعيش فيه. يقول "دوركايم" متحدثًا عن المجتمع أنه هو: " الذي بث فينا، حين عمل على تكويننا خلقيًا، تلك المشاعر التي تُملي علينا سلوكنا بلهجة آمرة صارمة، أو تثور علينا بمثل هذه القوة عندما نأبي أن نمتثل لأوامرها. وضميرنا الأخلاقي لم ينتج إلا عن المجتمع ولا يعبر إلا عنه. وإذا تكلم ضميرنا، فإنما يردد صوت المجتمع فينا"(١).

لذا زعموا أن المجتمع أو ما أطلق عليه "دوركايم" (الضمير الجمعي) هو مصدر "الضمير الأخلاقي" الفردي وهو مصدر تلك المشاعر التي تأمر وتنهي. فالضمير الأخلاقي لم ينتج إلا نتيجة للعيش في المجتمع والتأثير بما فيه من عادات وتقاليد. كما أن أحكامه تختلف من مجتمع لآخر، وبناء على ذلك فإن لكل

=نال بها درجة الدكتوراه، وجهت إليه وإلى مدرسته أنهم لم يقوموا بدراسات ميدانية تتعلق بالنظريات والآراء التي وضعوها، ظل دوركايم أستاذًا لعلم الاجتماع في السوربون حتى وفاته. من أشهر كتبه: **تقسيم العمل الاجتماعي، قواعد المنهج الاجتماعي، الانتحار**." (انظر: عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، بيروت– المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى (١٩٨٤م)، ج١، ص ٤٨٠، ٤٨١.)".

(١) دور كايم، إميل، التربية الأخلاقية، ترجمة: السيد محمد بدوي، مراجعة: على عبد الواحد وافى، تقديم: محمد الجوهري، القاهرة– المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى (٢٠١٥م)، ص ٨٨.

مجتمع – من وجهة نظر أصحاب هذا الاتجاه – ضمير خاص به فما يستقبحه مجتمع قد يستحسنه آخر وما يستحسنه مجتمع قد يقبحه آخر، وهكذا...

ومن أصحاب هذا الفريق – الذين رأوا أن الضمير كسبي– تجد بعض علماء النفس من أمثال "فرويد" وأصحاب نظرية "التحليل النفسي" حيث ذهبوا إلى أن الإنسان يتكون من "**الأنا**"، و" **الهو**"، " كراسب من رواسب فترة الطفولة الطويلة التي يعيش فيها الإنسان الناشئ معتمدًا على والديه، تتكون في "الأنا" منظمة خاصة يمتد فيها تأثير الوالدين هذا ويطلق عليها اسم **الأنا الأعلى**. وبقدر ما ينفصل هذا **الأنا الأعلى** عن **الأنا** أو يعارضه، فهو يكون قوة ثالثة ينبغي على **الأنا** أن يعمل لها حسابها"[(١)]. يرى علماء النفس أن الجهاز النفسي يتكون من جزئيين هما (الأنا[(٢)] – والهو[(٣)]) و "الضمير الأخلاقي" يتمثل في هذا الجزء من الجهاز النفسي والذي يسمي بـــ " الأنا الأعلى" التي تتكون في فترة الطفولة حيث يكون الطفل خاضعًا لوالديه ومتأثرًا بأوامرهما ونواهيهما فهو " ذلك الأثر الذي يبقى في النفس من فترة الطفولة الطويلة التي يعيش فيها الطفل معتمدًا على والديه وخاضعًا لأوامرهما ونواهيهما. ويقوم الأنا الأعلى عادة بتقمص

---

(١) فرويد، سيجموند، الموجز في التحليل النفسي، ترجمة: سامي محمود على– وعبد السلام القفاش، تقديم: محمد عثمان نجاتي، مراجعة: مصطفى زيوار، القاهرة– مكتبة الأسرة (٢٠٠٠م)، ص ٢٧.

(٢) **الأنا:** هو الجزء الذي " يسيطر على الحركات الإرادية، نتيجة للعلاقة السابقة التكوين بين الإدراك الحسي والفعل العضلي، كما يقوم بمهمة حفظ الذات" (الموجز في التحليل النفسي، ص ٢٦)

(٣) **الهو**: " مضمونه كل ما هو موروث، كل ما يظهر عند الميلاد، كل ما هو مثبت في الجَبَلة. لذا فهو يتألف أولًا وقبل شيء من الميول الغريزية التي تصدر عن التنظيم الجسمي وتجد ههنا أول تعبير نفسي عن ذاتها في صور نجهلها " الموجز في التحليل النفسي، ص٢٦.

شخصية الوالدين ومن يشبهما من المدرسين والمربين وبذلك تتحول سلطة هؤلاء الأشخاص الخارجية إلى سلطة نفسية داخلية في نفس الطفل تأخذ تراقبه، وتصدر إليه الأوامر، وتنتقده، وتهدده بالعقاب. ويطلق فرويد على هذه القوة النفسية (الأنا الأعلى) (Super-Ego) أو الأنا المثالي (The Ideal Ego) وهو ما يعرف عادة بالضمير"(١).

فالضمير عند هؤلاء صفة أو خاصية يكتسبها الإنسان في مرحلة الطفولة، ويكون متأثرًا فيها بشكل كبير بالشخصيات الرئيسة في مرحلة الطفولة، كالوالدين والمربين والمدرسين. وعادة ما يكون متأثرًا بخبراتهما ورأيهما فيما يجب وما لا يجب. فيستحسن ما يستحسنه هؤلاء ويستقبح ما يستقبحونه، يرى الخير فيما رأوا أنه خير، والشر فيما رأوا أنه شر. وكأن الطفل في ذلك الوقت كالمرآة تنعكس عليها آراء وخبرات المربين حتى تصير مع مرور الوقت صفة أساسية في وجدانه النفسي.

وهذا الرأي –رأى القائلين إن الضمير كسبي– أخذ جزء من الحقيقة وترك الباقي وأصر على أن هذا الجزء هو كل الحقيقة. حقًا إن الضمير الأخلاقي ينمو ويتأثر بالأسرة والمجتمع والمدرسة والتربية على وجه الخصوص، لكن القول بأن هذا هو المصدر أو المنشأ الوحيد للضمير الأخلاقي لدي الإنسان قول عار تمامًا من الصحة، يشهد بذلك من نراه من اتفاق الناس في كل عصر ومصر على مبادئ الأخلاق، وأصول الخير والشر؛ فترى استحسان الصدق والعدل والعفة متفق عليه بين كل الأجيال، بالرغم من اختلاق المجتمعات ومشارب الثقافات والتربية، كذلك ترى استقباح الكذب والظلم والخيانة أمر ظاهر بين كل المجتمعات والأجيال من مبدأ الخليقة وسيظل هكذا إلى قيام الساعة.

---

(١) فرويد، سيجموند، الأنا والهو، ترجمة: محمد عثمان نجاتي، القاهرة– دار الشروق، الطبعة الرابعة (١٤٠٣هـ– ١٩٨٢م)، **مقدمة المترجم**: ص ١٧.

ثم إنه لو كان المجتمع والأسرة والتربية هما فقط المصادر الأولى للضمير الأخلاقي فكيف يمكن تفسير استحياء بعض الأطفال عند إتيان شيء مخالف للأخلاق بالرغم من أنهم لم يفقهوا بعد عراف أو عادات، وقوانين المجتمع؟

ولو كان ما ذهبوا إليه صحيحًا فمن إذًا الذي أرشد وهدى " مقنني الجمعية البشرية إلى الخير والشر، ثم لماذا نرى بعد هذه الأجيال الطويلة الخيرات والشرور الأساسية كما كان يراها الجيل الاول دون تبدل ولا تغير؟ ثم لماذا نرى اختلاف البيئة الاجتماعية عند الشعوب المتباينة ظاهر الأثر في تغير جوهريات القوانين الوضعية؟ ولكننا نرى الأسس الجوهرية لقانون الأخلاق واحدة في كل العصور ولدى كل الشعوب لم يعد عليها مرور الأزمان ولا تباين الأمكنة والأصقاع"[١] حتى القوانين الوضعية تراها في كل المجتمعات رغم اختلاف الثقافات متفقة في أصول الأخلاق، فترى القانون الأخلاقي محتفظًا بقوته وسماته رغم تباين الأجيال واختلاف الأزمان. كل هذا يدل في وضوح على أن نواة الضمير الأخلاقي، ومبدئه فطرية يشترك فيها كل إنسان. ولكن يأتي التفاوت في درجة الضمائر ويقظتها، من تغاير درجات التربية، وتنوع الثقافات والمجتمعات –فمثلًا– إن أخذت عددًا من بذور التفاح ووزعتها على عدد من المزارعين كل منهم يزرع في بيئة مختلفة وفي ظروف متباينة، ويستخدم أسمدة غير ما يستخدمه الأخرون، ثم انتظرت إلي أن ينبت ويثمر وذهبت إليهم فإنك حتمًا سترى اختلاف في الثمرات التي نمت سواء في الحجم أو الجودة، بالرغم من أن البذور واحدة وعلى نفس الدرجة من الجودة، ويفسر هذا التنوع في الثمار الاختلاف والتنوع في نوع التربة والأسمدة المستخدمة، ورعاية كل مزارع لثمرته، فكذلك الضمير الأخلاقي يتفاوت من شخص لآخر

(١) محمد غلاب، الأخلاق النظرية، القاهرة– المطبعة المصرية الأهلية الحديثة، (١٩٣٣م)، ص١١٢.

ومن مجتمع لآخر، بالرغم من أن الفطرة الإنسانية واحدة، وذلك نتيجة لاختلاف الثقافات وأساليب التربية من مجتمع لآخر، بل من أسرة لأخري، وكذلك اختلاف البيئة التي يعيش فيها الإنسان، البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية.

إن أقصي ما يمكن للمجتمع أن يفعله أن يساعد على تنمية ذلك الضمير ويصبغه بشئ من صبغته الخاصة، وأن يعمل على تربيته وابقائه في حالة استيقاظ في أغلب الأوقات، وذلك عن طريق تشريع الأنظمة الاجتماعية المتفقة مع مبادئ الأخلاق، والعمل على نشر العادات والتقاليد التي تُثري النظام الأخلاقي بالقيم الأخلاقية المختلفة. وكما يقول "جبريل مانديه" "والواقع أن الحياة الاجتماعية وضغوطها ليست غير مجرد وقائع، ولكي تتخذ هذه الضغوط طابعًا إلزاميًا، فلابد أن يقر ضميرنا لها بذلك. ولهذا فإن الفرد، مهما يكن مطيعًا لأوامر جماعته، فإنه ينبغي عليه أن يصادق عليها باطنيًا، إذا أراد أن يفعل بوصفه كائنًا أخلاقيًا وإلا يكون مجرد صمولة في ماكينة"(١). إن الإنسان لن يلتزم بتعاليم المجتمع وعاداته إلا إذا كان مقتنعًا بها في قرارة نفسه؛ ذلك لأنه يمكنه التفلت من رقابة المجتمع بسهولة، ويستطيع أن يفعل ما لا يرضاه المجتمع خفية، كما أنه يستطيع أن يتهرب من القوانين الوضعية ويتحايل على الأعراف والتقاليد. فلن تكون قوانين المجتمع مُلزمة إلا إذا كان الإنسان موقنًا بها في قرارة نفسه. وإن فعلها خشية العقاب الوضعي، أو استهجان الرأي العام، فذلك يعد رياءً ومخالفة لمضمون الضمير الأخلاقي، ونفاقًا، وذلك أبعد ما يكون عن معني الأخلاقية.

وإذا كان المجتمع غير قادر على مراقبة أفراده في كل الحالات، ولكل فرد فرصة في مخالفة "الضمير الجمعي" فإن هذا يعد دليلًا واضحًا على أن المجتمع

(١) عبد الرحمن بدوي، الأخلاق النظرية، الكويت – وكالة المطبوعات، الطبعة الثانية (١٩٧٦م)، ص ٦٤.

ليس هو منشئ الضمير الأخلاقي- وإن كان له دور جزئي في إيقاظه – وإلا كان في استطاعته أن يعمل على مراقبة كل الأفراد في كل وقت.

أيضًا مما يدل على أن المجتمع ليس هو مصدر الضمير الأخلاقي أن الإنسان قد تخالف قيمه وأخلاقياته ما هو سائد في مجتمعه ولو كان هو منشئه حقًا " لتساوت كل الضمائر في المعايير التي تتخذها مقاييس للأخلاق، والمشاهد الذي لا شك فيه أن ثمّ تفاوتًا بين الضمائر في المعايير... ولا يتفق مع الواقع في شيء أن يقال إنها متساوية في تقديرها لما هو خير ولما هو شر، لما هو حسن ولما هو مستهجن قبيح. وتكفي هذه المشاهدة الواقعية التي لا شك فيها للتدليل على أن ما يؤلف الضمير ليس هو ما يفرضه المجتمع من قيم ومعايير من أوامر ونواهٍ "[١].

أما قول أصحاب "التحليل النفسي" أن الضمير الأخلاقي نشأ نتيجة لضغوط مارسها الوالدين، أو المعلمين على الطفل حتى رسخت لديه وصارت مرجعية في حكمه وقيمه. فإن ذلك قول يجانبه الصواب ذلك أنه إذا كان ضمير الفرد صورة من ضمائر والديه ومربيه فعندها لا يمكن لومه أو محاسبته على فعل الخطأ بل يجب لوم ومحاسبة والديه، كما أنه برغم اختلاف ثقافات الأبناء والمربين والمعلمين فإنه من المعلوم وجود اتفاق على معني الخير والشر في العموم. ولو كان الضمير مكتسب فقط من خبرات الوالدين والمربين أو المعلمين لما وجد تفاوتًا في قوة الضمير بين الأسرة الواحدة، والواقع يشهد ففي بعض الأحيان يكون الأب صالحًا والأبن طالحًا، والعكس. بل وبين الأخوة وبعضهم، بالرغم من أنهم تشربوا نفس القيم والأخلاق من نفس الوالدين، ونشأوا في نفس البيئة ونفس الأسرة.

---

[١] المرجع السابق، ص ٦٥.

الفريق الثالث: المنكرون لوجود الضمير الأخلاقي:

يرى بعض الملاحدة أن الضمير الأخلاقي – بل الأخلاق ذاتها– ما هي إلا خدعة اخترعها الضعفاء لتبرير ضعفهم، ومواساة أنفسهم عند سيطرة الأقوياء عليهم، وهذا الرأي ينسب لـــ "فريدريك نيتشه ١٨٤٤–١٩٠٠م"[(١)] أو كما يُطلق عليه – فيلسوف القوة – " الذي أقام ثورة عارمة على الموروث الثقافي للأمم– بما فيه الموروث الأخلاقي– واعتبره خدع وأوهام لتبرير الضعف والهوان، وأنه ليس ثمة أخلاق، ولا ما يسمى بالضمير الأخلاقي، فلا ينبغي أن يوجد إلا القوة والقوة وحدها، فهي أصل كل شيء. وللإنسان أن يفعل كل ما في وسعه ليكون قويًا، حتى ولو داس على كل الأعراف والقيم فلا اعتبار لذلك يكفي فقط أن يكون قويًا.

وهذا رأى من شأنه أن يهدم الأمم والمجتمعات، ذلك لأن الأخلاق هي عماد الأمم، وسبيل استقامتها، ومنبع أمانها، فلا أمان ولا استقامة في مجتمع يخلو من الأخلاق، فغياب الأخلاق يعنى انتشار الكذب والخيانة والظلم وغيرها من المفاسد، وغيابها يعنى أن يتساوى من يخلص في عمله ويتفانى في واجبه بمن لا يعمل، يتساوى الكاذب بالصادق، يتساوى المجرم بمن يسهر لحماية المجتمع،

---

(١) **نيتشه، فريدريش فلهلم** " ولد في روكن ١٨٤٤ ومات في فايمار ١٩٠٠، كان مقرر له أن يصبح قسًا إلا أنه عدل عن ذلك، دخل في الثامنة عشر جامعة بون ومنها إلى جامعة لايبتزيغ، حيث هزته مطالعة كتاب شوبنهاور العالم كإرادة وكتمثل. عُين أستاذًا للفيلولوجيا [فقه اللغة]، وفى عام ١٨٧٠ كرّس أوقات فراغه لدراسة أصول المأساة اليونانية. وعند الإعلان عن الانتصار الألماني تطوع في الجيش. في كانون الثاني ١٨٨٩م ضربته نوبة خبل فنُقل على إثرها إلى "بال" ومنها إلى مصح عقلي في إيينا. من أشهر مؤلفاته – **هكذا تكلم زرادشت– الفجر– إرادة القوة**– أصل **الأخلاق وفصلها**." (انظر: جورج طرابيشي، معجم الفلاسفة، دار الطليعة، لبنان – بيروت، الطبعة الثالثة ٢٠٠٦م، ص ٦٧٧، ٦٧٨، ٦٧٩).

يتساوى المحسن والسارق، ومجتمع هذا حاله فهو هالك لا محالة. وصدق أمير الشعراء حين قال:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت*** فإن هُمُوُ ذهبت أخلاقهم ذهــبوا**

لذا تعد الأخلاق صمام الأمان للمجتمعات، ومفتاح التقدم للأمم، بل يجب أن يقاس تقدم الأمم وحضارتها بمدى حرصهم وتمسكهم مكارم الأخلاق، فلا معنى لأي تقدم علمي أو أدبي أو تِقنى ما لم يُحاط بسياج من الأخلاقيات التي تحفظ تواجده، وتعزز دوره في بناء الأمم وتقدمها.

ولن يُرضى هذا المذهب إلا ضعاف النفوس، ودعاة الحرية المزيفة، فإن كان هذا المذهب يوحى بنوع من الحرية " إلا أنها حرية عرجاء، فأي حرية تلك التي يزاول الإنسان بمقتضاها كل الفعال والتصرفات دون مراعاة لحرية الآخرين، إنها نوع من الفوضى أو هي الفوضى بعينها، ذلك لأن المجتمع – أي مجتمع – لو لم تحكمه الروابط العرفية، أو القانونية، أو الأخلاقية، أو الدينية لأصبح شبيهًا بمجتمع الغابة. القوى فيها هو الملك والسيد، والضعيف – إن بقي – هو المملوك والمسود. وهذا لا يتفق مع الفطرة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها "[١] ولهذا مهدت مثل تلك المذاهب لظهور أعتى وأقسى الأنظمة التي نال بسببها الضعفاء، والفقراء، والمرضى أقسى المصائر، كما فعلت النازية في ألمانيا. فقد كانت فلسفة "نيتشه" بمثابة الوقود الذي حرق به "هتلر" الكثير والكثير.

(١) محمد عبد الستار نصار، دراسات في فلسفة الأخلاق، الكويت – دار القلم، الطبعة الأولى (١٤٠١هـ – ١٩٨٢م)، ص ٢٠٦،٢٠٧.

المبحث الثالث

الضمير الأخلاقي في الفكر الإسلامي

ذلك الاستعداد والميل النفسي المُرشد والموجه للإنسان نحو الفضائل والخيرات، والمحاسب له بالتوبيخ أو الارتياح ذكره القرآن الكريم وأشارت إليه السنة النبوية الشريفة، واهتم به علماء ومفكرو الإسلام؛ في إشارات مهمة وصريحة لأهميته ودوره الفعال في بناء أخلاق الإمم وتشكيل وعيها البنّاء.

أولا: القرآن الكريم:

إن كان ما يميز الضمير الأخلاقي هو قدرته على التمييز بين الخير والشر، والحق والباطل، فيمكن القول أنه هو هذا الشعور أو الإلهام الإلهى الذي ورد ذكره في قوله تعالى ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ [الشمس: ٧-٨]. كذلك يمكن القول أنه هو أيضًا الهدي الرباني المُشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠].

كذلك تحدث القرآن الكريم في كثير من آياته عن النفس الإنسانية، وعن حالاتها ومميزاتها. ومن بين تلك الحالات حالة اللوم والشعور بالذنب والتأنيب والتوبيخ الداخلي التي يعيشها الإنسان عند فعل ما من شأنه أن يعارض القانون الإلهي أو عند خرق القوانين الأخلاقية، ولقداسة تلك الحالة النفسية وهذا الشعور النفسي الداخلي ولدوره الفعال في بناء النفس والأخلاق الإنسانية وأهميته في بناء الأمم والمجتمعات وتشكيل وعيها؛ أقسم بها الله تعالي في كتابه العزيز قال تعالى: **(لا أقسم بيوم القيامة ۝١وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ)** **[القيامة: ١ ٢]** قال الإمام "القرطبي" في تفسيره: " ومعنى: بالنفس اللوامة: أي بنفس المؤمن الذي لا تراه إلا يلوم نفسه، يقول: ما أردت بكذا؟ فلا تراه إلا وهو يعاتب نفسه، قاله ابن عباس ومجاهد والحسن وغيرهم. قال الحسن: هي والله نفس المؤمن، ما يرى

المؤمن إلا يلوم نفسه: ما أردت بكلامي؟ ما أردت بأكلي؟ ما أردت بحديث نفسي؟ والفاجر لا يحاسب نفسه. وقال مجاهد: هي التي تلوم على ما فات وتندم، فتلوم نفسها على الشر لم فعلته، وعلى الخير لم لا تستكثر منه. وقيل: إنها ذات اللوم. وقيل: إنها تلوم نفسها بما تلوم عليه غيرها، فعلى هذه الوجوه تكون اللوامة بمعنى اللائمة، وهي صفة مدح، وعلى هذا يجئ القسم بها سائغا حسنا."[١] هنا تجد أن معنى "النفس اللوامة" يماثل معنى الضمير الأخلاقي حيث أنها قوة أو سلطة تأمر وتنهي وتكافئ وتوبخ، فدائمًا ما يشعر الإنسان المؤمن بشعور داخلي قد يكون مريح عند فعل الطاعات وقد يكون مؤلم أو موبخ عند فعل المعاصي والسيئات " وعلى هذا الشعور العام القادر على التمييز بين العدل والظلم وبين الخير والشر، يستند القرآن في أغلب الأحيان ليؤسس نظامه الخلقي. ويعتمد عليه في تعريف فكرته العملية"[٢].

ثانيًا: السنة النبوية المطهرة:

في السنة النبوية المطهرة تجد الحبيب المصطفي " صلى الله عليه وسلم " قد تحدث علي أن لدي النفس احساسا أو حدسا إن سَلم من آفات الهوي والشيطان يستطيع من خلاله أن يميز به بين ما هو خير أو بِر وما هو شر أو إِثم يتضح ذلك من الحديث الشريف الذى رواه النواس بن سمعان، قال: أقمت مع رسول

---

(١) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين (المتوفى: ٦٧١هـ)، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، القاهرة- دار الكتب المصرية، الطبعة: الثانية (١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م) ، ج: ١٩، ص ٩٢، ٩٣.

(٢) دراز، محمد عبد الله، مدخل إلى القرآن الكريم: عرض تاريخي وتحليل مقارن، ترجمة: محمد عبد العظيم على، مراجعة: د. السيد محمد بدوي، الكويت- دار القلم، (١٤٠٤ه - ١٩٨٤م)، ص ٩٠.

الله ﷺ بالمدينة سنة ما يمنعني من الهجرة إلا المسألة، كان أحدنا إذا هاجر لم يسأل رسول الله ﷺ عن شيء، قَالَ: فَسَأَلْتُهُ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي نَفْسِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ**»(١)، وفى رواية أخرى بلفظ " وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ" وهذا الشعور أو التوجيه النفسي الداخلي المقصود هو ما أطلق عليه حديثًا "الضمير الأخلاقي" ولأهمية هذا الإحساس والشعور الداخلي في إرشاد الإنسان وتوجيهه للخير وإبعاده عن الشر ومجازاته عند الطاعات وتوبيخه عند فعل الموبقات ولأهميته في بناء الأخلاق وبناء وعي إنساني ومجتمعي رشيد تحدث عنه القرآن الكريم وأشارت إليه السنة النبوية الشريفة.

ثالثًا: الفكر الإسلامي:

نجد أيضًا أن علماء المسلمين ومفكروه قد أهتموا بتلك النبتة، وذاك الاستعداد الذي وهبه الله – جل جلاله – لعباده يلتمسون به البِر والخير، ويستنيرون بحكمه فيما يعرض لهم من مواقف. ولقد أطلق عليه علماء المسلمين "العقل العملي" لصلته بالعمل، وأطلق عليها أيضًا "الحكمة" مجازًا لدورها في إرشاد وتوجيه الإنسان للحق والصواب.

فتحدث الإمام "الغزالي" عن النفس وذهب أن لها قوتين قوة على جهة الفوق، وقوة على جهة التحت، وقصد بالقوة التي تلي الفوق "العقل النظري" والذي تُولد نواته في الطفل وبها يُحصّل الإنسان العديد من الفنون والعلوم المختلفة. وأما القوة التي تلي جهة تحت يقصد بها جهة البدن فقد أطلق عليها العقل العملي. فذكر أن " القوة الثانية هي التي تلي جهة تحت أعني جهة البدن

(١) رواه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تفسير البر والأثم، رقم الحديث: ٢٥٥٣.

وتدبيره وسياسته، وبها تدرك النفس الخيرات في الأعمال وتسمي العقل العملي، وبها يُسوس قوي نفسه ويسوس أهل بلده ومنزله واسم الحكمة لها من وجه المجاز، وهذه هي الحكمة الخلقية"(١).

يرى "الغزالي" أن للنفس الإنسانية قوتين قوة نظرية يُدرك بها الإنسان العلوم والمعارف، وقوة عملية يُدرك بها الأخلاق والخيرات والفضائل، وبها يُدبّر أمره وأهله ومجتمعه. فإن أطاعها اعتدلت قواه، وحسنت أخلاقه، ولهذا وصفها " بالحكمة الخلقية" وهي متى " استعانت بالعقل وأدبت بحمية الغضب وسلطتها على الشهوة واستعانت بإحداهما على الأخرى تارة بأن تقلل مرتبة الغضب وغلوائه بمخالفة الشهوة واستدراجها، وتارة بقمع الشهوة وقهرها بتسليط الغضب والحمية عليها، وتقبيح مقتضياتها اعتدلت قواها، وحسنت أخلاقها، ومن عدل عن هذه الطريقة كان كمن قال الله تعالى فيه ﴿**أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ**﴾ [الجاثية:٢٣] "(٢). فالإنسان متي أطاع تلك القوة العملية اعتدلت قواه وحسنت أخلاقه وأبعد عن نفسه الهوى.

اهتم بها أيضًا "الفارابي" فجاء في تقسيمه لقوي الإنسان المفارقة قوله: " ومن هذه القوي (العقل العملي) – وهو الذي يستنبط ما يجب فعله من الأعمال الإنسانية"(٣). فللنفس الإنسانية قوة موجهة ومرشدة للإنسان لما ينبغي أن يكون عليه سلوكه وفعله، بالإضافة إلى ذلك فهي – حسب الفارابي– سلطة بها يفرق

---

(١) الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: ٥٠٥هـ) ميزان العمل، حققه وقدم له: الدكتور سليمان دنيا، القاهرة– دار المعارف، الطبعة الأولى، (١٤٣١هـ – ١٩٦٤م)، ص ٢٦٥.

(٢) المرجع السابق، ص٢٣٦.

(٣) أبو نصر الفارابي، عيون المسائل، القاهرة– المكتبة السلفية، (١٣٢٨ه – ١٩١٠م)، ص ١٧.

الإنسان بين الخير والشر، وتدعوه دائماً لفعل الخير وتحثه عن البعد عن الشر فقال: " والصنائع التي تكسبنا علم ما يعمل والقوة على عمله صنفان: صنف يتصرف به الإنسان في المدن... وصنف به ينظر الإنسان في السّير أيها أجود وينحو به نحو الحسنات، ويتخير به أعمال البر والأفعال الصالحة وبه يستمد القدرة على فعلها "[1] يقصد بالصنف الثاني الذي به يتخير الإنسان السّير وبه ينحو نحو الحسنات، ويتخير به الصالحات، وبه يستمد القوة على فعل الخيرات ما يتوافق مع معنى" الضمير الأخلاقي "

وفى موضع آخر ذكر "القوة الناطقة" فوصفها بأنها " التي يمكن أن تعقل المعقولات، وبها يميز بين الجميل والقبيح"[2]. فالحديث عن قوى النفس التي ترشد وتوجه إلى الخيرات والفضائل بارز ومتأصل في الفكر الأخلاقي الإسلامي.

ومما تجب الإشارة إليه أنه لا يقصد مما سبق عصمة تلك القوة، أو ذاك الاستعداد النفسي "الضمير الأخلاقي"، أو تيقظه في كل وقت وحين، لا سيما وأنه موجود في كل نفس حتى في الأشرار وأصحاب السوء فـ " لا نزعم عصمة العقول والضمائر من الخطأ في تحديد الحَسن والقبيح والخير والشر، ولو في بعض الأحيان. ولكننا نستطيع أن نقرر مطمئنين أن هذه الأخطاء إنما تكون حيث يجتمع في الفعل الواحد جهتا خير وشر، فتختلف الأنظار في ترجيح أيهما، أو حيث تكون الإصابة في الحكم بحاجة إلى شيء من التروي البعيد عن الهوى، أو حيث تنطمس معالم الصواب في بعض الشؤون ويخفى طريقه، حتى تعجز

(١) أبو نصر الفارابي، رسالة التنبيه على سبيل السعادة، دراسة وتحقيق: سحبان خليفات، عمّان – الجامعة الأردنية، الطبعة الأولي (١٩٨٧م) ص ٢٢٢.

(٢) أبو نصر الفارابي، أبو نصر، آراء أهل المدينة الفاضلة، قدم له وعلق عليه: ألبير نصري نادر، بيروت– دار المشرق، الطبعة الثانية (٢٠٠٠م)، ص ٨٧.

العقول عن الاهتداء إليه ما لم يمدها نورُ من الوحي السماوي. ومن أجل ذلك أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، إيضاحًا لمعالم الحق، وتكميلًا لمكارم الأخلاق."[١] مما سبق يتضح أن القرآن والسنة وكذلك الفكر الإسلامي عامة لم يُهمل تلك النبتة والمنحة الإلهية، والخاصية البشرية التي لها دور بارز وفعال في قيام الأخلاق وبناء وعي إنساني رشيد يسهم في بناء وتقدم الأمم والمجتمعات.

تعقيب:

الاستعداد والميل النفسي المُرشد والموجه للإنسان نحو الفضائل والخيرات، والمحاسب له بالتوبيخ أو الارتياح ذكره القرآن الكريم وأشارت إليه السنة النبوية الشريفة، واهتم به علماء ومفكرو الإسلام؛ في إشارات مهمة وصريحة لأهميته ودوره الفعال في بناء الإمم وتشكيل وعيها البنّاء.

وفى الفكر الإلحادي جاء منحصرًا تحت مسميات لا ترقى للدور المنوط به الضمير في مجال الأخلاق، فلا يعدو كونه **حاسة** من الحواس – وإن كانت محسوساته من قبيل الخير والشر – إلا أنه حاسة تعمل كباقي الحواس، تعمل بطريقة مباشرة تلقائية فتفرق بين الخير والشر كما تفرق العين بين الأحمر والأخضر، أو كما تميز الأذن البكاء من الضحك، حاسة لا تعدو كونها خاصية تلقائية تعمل بمعزل عن إرادة الإنسان وقصده، أو هو –حسب بعضهم– " استبصار أو توقع " لعواقب الأمور يُبنى على خبرة الفرد الذاتية ويخضع لمصلحته ومنفعته الشخصية، أو مجرد وهم أطلقوا عليه " الضمير الجمعي" الذي اخترعه "دوركايم" وجعله مهيمنًا على الأفراد ووصيًا عليهم، مُجبرًا لا مرشدًا، قاهرًا لا موجهًا لكل ما يقرره ويراه؛ فالخير ما يستحسنه المجتمع، والشر ما

(١) دراز، محمد عبد الله، دراسات إسلامية في العلاقات الدولية والاجتماعية، ص ١٩٧.

يأباه وينكره، وتختلف في ذلك المجتمعات باختلاف أعرافها وتغاير عاداتها وقوانينها.

وفى كلٍ فإن الضمير في الفكر الإلحادي قد فَقد دوره، ومهمته في تعديل وتوجيه السلوك الإنساني نحو الخير والحق، وإرشاد الوعي نحو مكارم ومحاسن الأخلاق.

أما في الفكر الإسلامي فقد حَظيَ بمكانة عالية واهتمام واضح لدوره في توجيه الحس الأخلاقي؛ فقد حفل القرآن الكريم والسنة النبوية بالتعليمات والتوجيهات التي من شأنها أن تزيد وتنمى ذاك الاستعداد والميل، حتى يؤتى ثماره في قيام الأخلاق، وتحقيقها على أكمل وجه؛ لهذا وعد الله –تعالى– من حرص على تنمية وتقوية ذاك الميل والاستعداد بالفلاح، وتوعد من يتجاهله ويخالفه بالخيبة والخذلان. قال تعالى : ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠**﴾ [الشمس: ٧–١٠] .

وجدير بالذكر أيضًا أن "الضمير الأخلاقي" في الفكر الإسلامي ليس فطريًا صرف، أو كسبيًا صرف، بل هو مزيج بين الفطرة والاكتساب، فهو كما يذهب إلى ذلك "د. محمد يوسف موسي": " قوة فطرية في كل إنسان باعتبار جرثومتها وأصلها، وأن للتربية العقلية والأدبية دخلًا في نموها وكمالها"(١). كما أنه في هذا يتفق مع "الإمام الغزالي" في وصف تلك القوة حيث استطرد قائلًا: " ولعلنا لا نبعد عن الصواب إذا قلنا: إننا نتفق في هذا مع الغزالي بعد ما نقلناه عنه من تسميته لهذه القوة الهادية للمرء في أعماله المحاسبة له عليها تارة نورًا إلهيًّا وطورًا معرفة؛ إذ وصفها بأنها نور إلهي يسيغ لنا القول بأنها في أصلها قوة فطرية، وتسميتها بعد هذا معرفةً تجعلنا في حِلٍّ من تقرير أنها تنمو وتكمل

(١) مباحث في فلسفة الأخلاق، ص ١٤١.

بالتربية"[١]. فالإنسان يولد بنواة هذا الاستعداد وتلك القوة، وعليه أن يتعهدها بالتزكية والنماء حتى تؤتى دورها في توجيهه وإرشاده لكل خير وحق، وعندها يكون أهلًا للفلاح الذي وعد به الله كل من يزكى تلك القوة أو الشعور النفسي.

والله –عز وجل– عندما وهب الإنسان تلك النبتة وذاك الاستعداد "الضمير الأخلاقي" وهداه إلى معرفة الخير والشر لم يدع تلك النبتة وشأنها وإنما تعهدها بالتربية والرعاية حتى تكبر وتؤتي أفضل ثمارها. وذلك بأن جعل الإنسان على علم بأنه –جل شأنه– يراه ويعلم ما يفعل ليس فقط ظاهر أفعاله أو علانيتها ولكنه – سبحانه – مطلع على ضميره وسره أيضًا، قال تعالى ﴿**يَعلَمُ خَآئِنَةَ ٱلأَعيُنِ وَمَا تُخفِي ٱلصُّدُورُ**﴾ [فاطر:١٩]، وذلك حتى يجعل الضمير الأخلاقي متيقظًا دائمًا عندما يشعر بأنه مُراقب، فلا يَدع له فرصة للتفلت، وذلك أدعي لعمل الخيرات والبعد عن الشرور. وليس معني ذلك أن كل إنسان مراقب لله – تعالى – في أفعاله وسره وعلانيته، فالبعض يعصيه في السر، ويطيعه في العلن، والبعض الآخر يعصيه في السر والعلن. وهم أولئك الذين لم يستفيدوا بالهدى الإلهي.

وتلك نظرة أوسع وأكمل للضمير الأخلاقي عن تلك التي جاء بها الفكر الإلحادي فمنتهي ما أتي به أن الضمير كسبي نشأ في الإنسان نتيجة لضغط المجتمع كما يقول بذلك التجريبيون على اختلاف مذاهبهم. أو كسبي أكتسبه الإنسان نتيجة للأوامر والنواهي التي يتلقاها الطفل في صغره من والديه أو مدرسيه أو مربيه مكونًا ما يسمي "بالأنا الأعلى"، وذلك فيه هدم لبناء صرح الأخلاق؛ لأن المجتمع لا يخلق الضمير كما زعم أصحاب الاتجاه الاجتماعي؛ فمما لا شك فيه أن الضمائر تختلف وتتفاوت في قوتها الإلزامية في المجتمع

(١) المرجع السابق، ص ١٤١.

الواحد بل في الأسرة، وهذا التفاوت يبطل زعم "دوركايم" ومن شايعه في أن المجتمع هو منشئ الضمير الأخلاقي عن طريق ما يفرضه من قيم، ومعايير، وأوامر ونواهٍ.

ولو كان الضمير غريزي يعمل بتلقائية محضة بعيدًا عن القصد والإرادة – كما أدعى أصحاب الحاسة الخلقية– فعندها لا يمكن محاسبة الإنسان على أخطائه إن كان يأتيها قسرًا دون إرادة منه، وعندئذ لا يمكن وصف الضمير الأخلاقي بأنه سيء أو حسن. كما أن ذلك يبطل دور التربية والتعليم، ودور المصلحين في إصلاح ما فسد من الضمائر، وتقويم ما أعوج من سلوكيات.

كذلك مما يجب التنبيه عليه –وهي زعم يتمسك بها دعاة القول بكسبية الضمير الأخلاقي – أن اختلاف وتفاوت درجات الضمير بين المجتمعات أو حتى بين الأشخاص لا يعنى أنه مكتسب كلية؛ بل إن السبب في هذا التفاوت راجع في أصله إلى تفاوت مستويات التربية التي يتلقاها الفرد في الأسرة أو المدرسة أو في المجتمع، ذلك أن البيئات لا تكون على درجة واحدة من الالتزام بالأخلاق والقيم. كذلك يمكن عزو ذلك الاختلاف إلى " اختلاف مظاهر الخير والشر عند الناس مع وجود هذا الضمير داخل أنفسهم، فمأتاه تأثر الإرادات بنورانية الروح تارة، وبكثافة الجسم تارة أخرى، فإذا كانت القيادة للأولى كانت النتيجة الصعود إلى المثل الأعلى، وإذا كانت الغلبة للثانية، كان الهبوط إلى عالم العجماوات هو المنتهى والمآل "[1] فلا يرجع التفاوت فقط إلى اختلاف المجتمعات والثقافات بل يرجع أيضًا إلى طبائع البشر فمنهم من يميل ويتأثر بالروحانيات، ومنهم من يميل إلى ما هو مادى ومحسوس، فالأول يكون أقرب للوصول للمثل الأعلى في الأخلاق، والثاني ينحدر أكثر إلى عالم البهيمية من

(١) محمد غلاب، الأخلاق النظرية، ص ١٠١، ١٠٢.

حيث تلمس الماديات والشهوات ورعايته لشهوته وبدنه أكثر من رعايته لروحه وقلبه.

من كل ما سبق يتضح أن الأخلاق في ظل القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وكذلك في فكر علماءنا الأجلاء قادرة علي بناء فكر ووعي رشيد ومستنير علي مستوي الأفراد وبالتالي الأمم والمجتمعات.

الخاتمة

وفي الختام سرد لأهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة:

- الضمير الأخلاقي خاصية واستعداد نفسي يولد الإنسان بنواته فإذا صَلُح وسَلِم من آفات النفس والهوي؛ كان عاملًا مهمًا في بناء الأخلاق.
- لم يذكر الضمير الأخلاقي باسمه هذا إلا في الفكر الفلسفي الحديث. بينما تحدث عنه الفلاسفة قديمًا تحت مسميات أخري منها "العقل العملي" ومنها أيضًا "الحكمة الأخلاقية"
- للضمير الأخلاقي دور مهم في بناء المنظومة الأخلاقية فله دور معرفي ودور إلزامي وآخر جزائي.
- الضمير الأخلاقي في ضوء الفكر الإلحادي المادي يؤدي إلي نسبية الأخلاق وذاتيتها وبالتالي انهيار الأمم والمجتمعات لغياب القيم والمبادئ الأخلاقية المطلقة.
- اهتم المنهج الإسلامي برعاية تلك الهبة الربانية والمنحة الإلهية التي يولد بها الإنسان فأوصي برعايتها وتزكيتها حتي تكون عاملًا بنّاء وفعّال في قيام أخلاق موضوعية مطلقة.
- الضمير الأخلاقي في ضوء المنهج والفكر الإسلامي يُعد آلية مهمة وفعالة في بناء الوعي الإنساني الرشيد.

فهرس الموضوعات

م	الموضوع
	ملخص البحث
١	**المقدمة**
٢	**التمهيد**
٣	**المبحث الأول: معنى الضمير الأخلاقي**
٤	المطلب الأول: التعريف اللغوي للضمير
٥	المطلب الثاني: الضمير الأخلاقي
٦	المطلب الثالث: مهام الضمير الأخلاقي
٧	**المبحث الثاني: الضمير الأخلاقي في الفكر الإلحادي**
٨	الفريق الأول: القائلون أن الضمير غريزي
٩	الفريق الثاني: القائلون أن الضمير "مكتسب"
١٠	الفريق الثالث: المنكرون لوجود الضمير الأخلاقي
١١	**المبحث الثالث: الضمير الأخلاقي في الفكر الإسلامي**
١٢	أولا: القرآن الكريم
١٣	ثانيًا: السنة النبوية المطهرة
١٤	ثالثًا: الفكر الإسلامي
	الخاتمة
	فهرس الموضوعات